صاحب النحلة السنانية

رسالته، دهاؤه، بيانه

لأستاذ جليل

ذكر العلامة الأستاذ محمد كرد علي في مقاله المحقَّق : (ابن العديم وتآليفه) في (الرسالة) الغراء — الجزء ٢٢٠ في ١٤ رجب ٥٦ — سنانا الاسماعيلي (صاحب النحلة السنانية أو الحشيشية [١]) وروى أبياتاً من شعره ، وأشار إلى رسالته إلى السلطان صلاح الدين . وقد رأيت أن أنشر تلك الرسالة الأنيقة لنفاستها ، وقد نقلت — كما قال ابن خلكان — من خط (القاضي الفاضل) وما قولك في شيء يعجب عبد الرحيم البيساني فينسخه بنفسه ؟ ثم أوردُ ما أملاه صاحب (شذرات الذهب) من أنباء سنان هذا وفيه حديث عجيب في الكيد أو الدهاء ما بلغ دهاة مناكير مبلغه ، ولا سمع السامعون شبهه . ثم أروي (بياناً) لسنان إلى جماعته لجلالة قيمته في تاريخ النحل وقد عثر عليه العربانى [٢] (م . ستان جوارد) ونقله إلى الفرنسية . و(البيان) يبين لنا أن (أبا الحسن راشد الدين) قد ادعى دعوى الجماعة في الألوهية أو حاولها ، ولم يشأ أن يحتكرها في القاهرة محتكرون ، ويستبد بها فاطميون — كما يقولون — أو عبيديون ، وهو قد عرف من (أسرار الدعوة ...) ما عرفوه ... وما حل في مصر حل مثله في الشام ...

* * *

الرسالة

يا للرجال لأمر هال مُفظِعهُ ... ما مر قط على سمعي توقّعهُ

قام الحمام إلى البازي يهدده ... وكشّرت لأسود الغاب أضبعه

أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه ... يكفيه ماقد تلاقى منه أصبعه

ياذا الذي بقراع السيف هددني ... لاقام مصرع جنبي حين تصرعه

إنا منحناك عمرا كي تعيش به ... فإن رضيت وإلا سوف ننزعه [١]

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله ، فيالله للعجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، وبعوضة تعد في التماثيل . ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين . أوَ للحق تُدحضون [٢] ، وللباطل تنصرون «وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقلبون » . وأما ماصدر من قولك في قطع راسي ، وقلمك لقلامي من الجبال الرواسي ، فتلك أمانيّ كاذبة ، وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر لاتزول بالأعراض ، كما أن الأرواح لاتضمحل بالأمراض . كم بين قوي وضعيف ، ودني وشريف ! وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات ، وعدلنا عن البواطن والمعقولات ، فلنا أسوة برسول الله في قوله : ما أوذي نبي كما أوذيت . ولقد علمتم ماجرى على عترته ، وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال ، والأمر ما زال ، ولله الحمد في الأولى والآخرة ، إذ نحن مظلومون لاظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » ولقد علمتم ظاهر حالنا ، وكيفية رجالنا ، وما يتمنونه من الفوت [٣] ، ويتقربون به إلى حياض الموت . قل « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » وفي أمثال العامة السائرة : (أوَ للبط ، تهددين بالشط) فهيء للبلايا جلباباً ، وتدرع للرزايا أثواباً ، فلأظهرَنَّ عليك منك ، ولأفنينهم فيك عنك ... فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه [٤] ، والجادع مارن [٥] أنفه بكفه « وما ذلك على الله بعزيز » فاذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ، واقرأ أول (النحل [٦]) وآخر (صاد [٧])

---

(١) في (كتاب الروضتين) : « وكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية » والسنانية أو الحشيشية فرقة من الاسماعيلية والاختلاف بينهما قليل كما قال ستان جوارد

(٢) العربانى : عارف العربية من العجم

(١) قلت : لم تستمر هذه المنحة ... وقد حاولت الجماعة غير مرة اغتيال (بطل المسلمين) « والله يعصمك من الناس »

وإلا سوف الخ : القول عند بعضهم : وإلا فسوف ، وحذف الفاء مختص بالضرورة وفي (إعراب القرآن) : (إن ترك خيراً) لجوابه عند الأخفش (الوصية) واحتج بقوله (من يفعل الحسنات الله يشكره قلت : إن صح مذهب الأخفش فالحجة قول (الكتاب) المعجز لا قول الشاعر ...

(٢) دحضت الحجة : بطلت ، وأدحضها : أبطلها (٣) فوت الحياة

(٤) من المثل وأصله : (حتفها تحمل ضأن بأظلافها) ومن شعرهم : وكانت كعنز السوء قامت بظلفها إلى مدية تحت الثرى تستثيرها

(٥) مارن الأنف طرفه والقول من مقدمة الفاتحات

(٦) أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٧) ولتعلمن نبأه بعد حين

الخبر

وفى سنة (٥٨٨) توفى راشد الدين أبو الحسن سنان بن سلمان مقدم الاسماعيلية، وصاحب الدعوة بقلاع الشام. وأصله من البصرة، قدم إلى الشام فى أيام نور الدين، وأقام فى القلاع ثلاثين سنة، وجرت له مع السلطان صلاح الدين وقائع وقصص، ولم يعط طاعة قط، وعزم السلطان على قصده بعد صلح الفرنج، وكان (سنان) قد قرأ كتب الفلسفة والجدل

قال المنتجب: أرسلنى السلطان إلى سنان مقدم الاسماعيلية وهو القطب النيسابورى، وأرسل معنا (تخويفاً وتهديداً) فلم يجبه بل كتب على طرة كتاب السلطان: (الأبيات فى الرسالة المتقدمة) ثم كتب بعد الأبيات خطبة بليغة (هى تلك الرسالة) مضمونها عدم الخوف والطاعة، فلما يئس صلاح الدين منه جنح إلى صلحه، ودخل فى مرضاته

قال اليونينى فى تاريخه: إن سناناً سير رسولا وأمره ألاّ يؤدى رسالته إلا خلوة، ففتشه السلطان صلاح الدين فلم يجد معه ما يخافه فأخلى له المجلس إلا نفراً يسيراً فامتنع من أداء الرسالة حتى يخرجوا فخرجوا كلهم غير مملوكين صغيرين فقال: هات رسالتك، فقال: أمرت ألاّ أقولها إلا فى خلوة فقال: هذان يخرجان

قال: ولِمَ؟

قال: لأنهما مثل أولادى

فالتفت الرسول إليهما وقال: إذا أمرتكما عن مخدومى بقتل هذا السلطان تقتلانه؟

قالا: نعم، وجذبا سيفيهما. فبهت السلطان، وخرج الرسول وأخذهما معه فجنح صلاح الدين إلى الصلح وصالحه. ودخل فى مرضاته

* * *

البيان

«بسم الله الرحمن الرحيم: فصل من اللفظ الشريف للمولى راشد الدين عليه السلام، وهو أفضل البيان تقوتى[1] ربى لا إله إلا هو العلى العظيم. أيها الرفقاء غبنا عنكم غيبتين: غيبة تمكين وغيبة تكوين؛ واحتجبنا عن أرض معرفتكم، فضجت الأرض، وتقلقلت السموات، وقالت: يا بارى البرايا الغفور، فظهرت بآدم، وكانت الدعوة حواء، فحوينا على قلوب المؤمنين الذين ضجت أرض قلوبهم شوقاً إلينا، فنظرنا فى سماء نفوسهم رحمة منا، فمضى دور آدم ودعوته، ونفذت رحمة منا فى الخلائق حجته. ثم ظهرت بدور نوح فغرقت الخلائق فى دعوتى، فنجا بدعوتى ولطفى من آمن بمعرفتى، وهلك من الخلائق من أنكر حجتى. ثم ظهرت فى دور إبراهيم على ثلاث مقالات: كوكب وقمر وشمس فخرقت السفينة، وقتلت الغلام، وأقمت الجدار جدار الدعوة فنجا بلطفى ورحمتى من آمن بدعوتى؛ وخاطبت موسى بخطاب ظاهر غير محجوب للسائل هرون، ثم ظهرت بالسيد المسيح فمسحت بيدى الكريمة عن أولادى الذنوب فأول تلميذ قام بين يدى يوحنا الممدانى، وكنت بالظاهر شمعون، ثم ظهرت بعلى الزمان وسترت بمحمد، وكان المتكلم عن معرفتى سلمان، ثم ذرّ أبو الدر الحقيقى فى أولاد الدعوة القديمة بقيام قائم القيامة حاضراً موجوداً فما تمّ لكم الدين حتى ظهرت عليكم براشد الدين فعرفنى من عرفنى وأنكرنى من أنكرنى، وأنا صاحب الكون ما خلت الدار من أفراخ القدم. أنا الشاهد والناظر، ولى الرحمة فى الأول والآخر، فلا يغرنكم تقلب الصور؛ تقولون فلان مضى وفلان أتى، أقول لكم أن تجعلوا الوجوه كلها وجها واحداً، ما يكون فى الوجود حاضراً موجوداً صاحب الوجود! لا تخرجوا عن أمر ولى عهدكم من عربها وعجمها وتركها ورومها فأنا المدبر، ولى الأمر والارادة. فمن عرفنى باطناً قد تمسك بالحق، ولا تكمل معرفتى بغير ما أقول. عبدى أطعنى واعرفنى حتى معرفتى أجعلك مثلى حياً لا تموت وغنياً لا تفتقر، وعزيزاً لا تذل. اسمعوا وادعوا تنتفعوا. أنا الحاضر وأنتم الحاضرون بحضرتى. أنا القريب الذى لا أغيب، فإن عذبتكم فبعدلى، وإن عفوت عنكم فبكرمى وفضلى، أنا صاحب الرحمة وولى الغفر والحق المبين، والحمد لله رب العالمين، وهذا بيان»

هذا بيان راشد الدين وقد أنشر أمثاله من رسائل العبيديين بعد حين

(قارىء)

(١) قد يكون الأصل فوتى أو تقوى بالاضافة إلى ياء المتكلم أو أنها من لغة الجماعة